على طريق الأصالة

(٢)

إسلامية الثقافة

أنور الجندي

بسم الله الرحمن الرحيم

إسلامية الثقافة

﴿ في مواجهة الغزو الفكري واحتواء الثقافة المعاصرة ﴾

إن ثقافة أي أمة هي في الحقيقة خلاصة عقيدتها وجوهر فكرها وقيمها ومن ثم فإن الثقافة أساساً تقوم على العقيدة والقيم قبل أن تقوم على اللغة والعنصر ، وأن بين العناصر المختلفة الداخلة تحت لواء الإسلام وحدة أساسية عميقة الجذور هي وحـــدة العقيدة والقيم وما شكلته من عادات وتقاليد .

بل إن اللغة العربية التي هي وعاء القرآن الكريم قد أصبحت منذ نزل بها الوحي جزءاً أساسياً من هذه المنظومة الجامعة فاللغة العربية هي حاملة هذا الميراث الضخم (القرآن الكريم والسنة المشرفة)وهي في نفس الوقت حافظة التراث الإسلامي العريق الذي تشكل خلال خمسة عشرقرناً في مجالات التفسير والفقه والعلوم والسياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية .

ومن هنا فإن مقايسة الثقافة الإسلامية على نظريات الثقافة العالمية المختلفة تختلف اختلافاً شديداً من حيث أنها تصدر عن منهج جامع

(بين العقيدة والشريعة والأخلاق) ومن حيث أنها تمثل ديناً يربط بين العقيدة والنظام فى نفس الوقت .

ومن ثم فهى مترابطة الحلقات موصولة المراحل بين العصور منذ بزوغ فجر الإسلام إلى اليوم ، وهى بطابعها المميز قادرة على العطاء لا تتوقف ولا تعجز عن أداء دورها فى مواجهة التحدى الخطير الذى مازال يواجهها منذ يومها الأول . ذلك التحدى المتمثل فى احتواء الفكر البشرى لها وهى محاولة لم تتوقف أبداً ، وقد قاومها المسلمون فى المرحلة الأولى حين ترجمت الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية ودحضوا شبهاتها ومخاطرها ، ثم هم يواجهونها اليوم فى زحف الفكر الغربى عليها من خلال قنواته الثلاث (الغربية والصهيونية والماركسية) فى معركة لا تقل شراسة عن مرحلة ترجمة الفلسفات القديمة .

(٢)

وبعد : فلما كان الدين فى مقدمة العناصر التى استعان بها الإنسان فى محاولته للوصول إلى الكمال الانسانى فقد ارتبطت الثقافة بالعقيدة أساساً ولما كان الإسلام قد جاء منهج حياة ونظام مجتمع فقد أصبح ارتباط الثقافة بالعقيدة عاملا أساسياً يفوق ارتباطها باللغة أو العرق .

ومن هنا كانت الثقافة من العلم ومن المعرفة بمثابة المنهج الصحيح الخاص المرتبط بالآفة . بينما جاء العلم تراثاً إنسانياً عاماً جاءت الثقافة

ذات خصوصية متميزة تحتوى على منظومة جامعة بين العقيدة والقيم والعادات والتقاليد .

ومن هنا كانت رابطة الثقافة بالعقيدة أقوى من رابطتها باللغة والعرق ، فكانت الثقافة دائماً إسلامية الانتماء ، أما فيما يتعلق بالتقاء الأمم بالفكر البشرى والمعارف والعلوم فى مجال الاقتباس والتبادل فقد كانت الثقافة الإسلامية متميزة بخصوصيتها التى لا تنصهر ولا تحتوى مرونة واضحة فى الاستفادة من الأساليب والوسائل والتنظيمات دون فقد النظم والمناهج ، فإذا اقتبست شيئاً فإنها تجعله بمثابة المادة الخام التى تشكلها الثقافة الإسلامية فى دائرة كيانها دون أن تنصهر فيها .

• • •

٣ — وتتميز الثقافة الإسلامية بطوابع عدة :

أهمها الربانية والأخلاقية والوحدة الجامعة بين العناصر كما تتميز بطابع المقاومة فى مواجهة الاحتواء والانصهار ، فنحن لا نقر ما يسمى (عالمية الثقافة) المفروضة فى هذا العصر على الأمم ، كما تتميز بطابع التبليغ الذى هو فريضة على المسلمين أبد الدهر ، فى تقديم عقيدتهم إلى العالمين مما يستدعى المحافظة على معالمها كاملة وأصولها صحيحة ، حتى لا تحتوى أو تذوب فى الثقافات أو الكيانات العالمية المسيطرة .

وقد وضح فى هذا العصر أمر صلاحية المنهج الإسلامى للعالم كله وقدرته على العطاء العالمى للبشرية فى مختلف المجالات .

ولقد كان حرص المسلمين على مدى العصور الماضية حرصاً شديداً على بقاء الذاتية الإسلامية واضحة فى تميزها وخصوصيتها إيماناً بأننا أمة لها كيانها الحضارى وتاريخها العريق ولها رسالتها الخالدة إلى العالمين .

• • •

ولقد تميزت الثقافة الإسلامية عن الثقافات الغربية المادية أو الشرقية الروحية بطابع التكامل الجامع بين الروح والمادة والعقل والقلب وانطلاقها من عقيدة التوحيد الخالص ، القائم على إسلام الوجه لله تبارك وتعالى ، وأخلاقية الحياة ، والمسئولية الفردية ، والإيمان بالبعث والجزاء وتكامل العناصر الروحية والفكرية والمادية فى منظومة واحدة .

ولما كانت الثقافة الإسلامية تستمد مقومها الأساسى من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، فقد شكلت طابعاً أساسياً تلتق فيه الأعراق المختلفة : (عربية وفارسية وتركية وهندية جميعاً) وهى التى تستمد عقيدتها وفكرها ومنهجها الاجتماعى والأخلاق من هذا المنهج الأول والنبع الأصيل . وقد اتسعت رقعة عطاء الثقافة الإسلامية

بحيث لم تجعل للعوامل الجغرافية والعادات والتقاليد والطوابع الإقليمية الخاصة إلا قدراً ضئيلا لا يؤثر على هذا الطابع الجامع المتمثل فى الأخلاقيات والسلوك ووجهة الفكر وغاية الحياة ما دام موضوعاً فى حجمه الصحيح ولم يستعمل لمغالبة الأصل الأصيل. وإذا كانت الثقافة قد ارتبطت بالعقيدة أساساً فإن ميزانها قد جعلها مرتبطة أيضاً باللغة العربية التى ليست فى الحقيقة لغة قومية للعرب فحسب ، بل هى للمسلمين لغة ثقافة وعبادة وفكر ، ومن هنا كان الارتباط بالتراث الإسلامى جزء من ارتباطها بالثقافة الإسلامية عامة .

. . .

٤ — هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الثقافة الإسلامية تختلف عن الثقافة الغربية فى مقوماتها وأهدافها جميعاً ، حيث تستمد كل ثقافة مقوماتها من عناصر أساسية مختلفة . فالثقافة الغربية تستمد مصادرها من الفكر اليونانى والقانون الرومانى والمسيحية الغربية بينما تستمد الثقافة الإسلامية مقوماتها من القرآن الكريم والسنة المطهرة.

وهكذا تختلف الثقافة الغربية فى معظم مبادئها عن الثقافة الإسلامية وخاصة فى أمر العقيدة والقيم ، بل إن الباحث المدقق يجد أنهما تقومان على فكرتين فى النظر إلى الحياة والكون والإنسان متناقضين تماماً ، أبرزها فى الثقافة الغربية : —

(١) إنكار ما سوى الحس (وهو تعبير يؤدى إلى إنكار الوحى والنبوة والغيب .

(٢) نسبية الأخلاق بما يجعلها ليست من القيم الثابتة المرتبطة بالعقيدة .

(٣) إسناد حركة الحياة إلى الطبيعة بديلا عن الله تبارك وتعالى .

(٤) بروز نظرية الاستغناء عن التوجيه الإلهى جملة .

(٥) إقرار نظرية التطور المطلق بما يتجاهل تماماً قاعدة الإسلام القائمة على (الثوابت والمتغيرات) .

(٦) اعتماد مفاهيم وقيم تخالف النص القرآنى مخالفة صريحة كنظرية داروين ونظرية فرويد ، ونظرية ماركس ، ونظرية سارتر ، ونظرية دوركايم (وهى نظريات وليست علوماً ، وقد تكشف عجزها عن العطاء فى أبحاث علمية موثقة .

(٧) الإنشطارية التى تفصل بين القيم وتجعل لكل منها حريتها الخاصة بينما يقيم الإسلام قاعدة التكامل بين القيم ، ولقد وضح منذ وقت بعيد عمق هذا الخلاف الذى كشفه دعاة اليقظة الإسلامية إلى تحرير مفهوم الثقافة الإسلامية من التبعية والاحتواء ، وذلك نتيجة

للغزو الفكرى الذى عمد إليه الغرب فى محاولة لتحطيم أجنحة الثقافة الإسلامية وصهرها فى بوتقة الثقافة العالمية الأممية وإزالة تميزها الخاص .

ولقد استطاعت الثقافة الإسلامية أن ترتفع فوق الاحتواء وسعت إلى كسر أطواق الحصار لتعلن وجودها المتميز وطابعها الخاص : الربانى المصدر . الانسانى الوجهة . العالمى الغاية (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

وقد كان القرآن الكريم والسنة المطهرة (ميراثنا الخالد) هو مصدر القوة القادرة على إخراجنا من الاحتواء والحصار فقد أعطى الاسلام معتنقيه والمؤمنين به أمرين أساسيين :

أولا : القدرة على الخروج من الحصار .

ثانياً : القدرة على إعادة تصحيح المسيرة .

وسرعان ما استطاعت الثقافة الإسلامية أن تخرج معلنة عن مضمونها الأصيل (١) مضمون التكامل الجامع (ولا أقول الشمولى) بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

(٢) إعتماد قاعدتى الربانية والأخلاقية أساساً لحركتها منذ المنطلق إلى العودة .

ولم تكن مرحلة التخلف أو الضعف أو التوقف عن البث الحضارى كما يصورها خصوم الإسلام هى مرحلة الانحطاط كما وصفها جرجى زيدان وهى تسمية ظالمة . فقد استطاع العلماء المسلمون فى مرحلة الأزمة هذه أن يقدموا الموسوعات الكبرى التى أعادوا بها إلى الحياة العلوم التى تعرضت لخطر غزوة التتار والصليبيين .

٥ ـ وقد بقيت قضية التخلف تشغل علماء المسلمين وتلهب مشاعرهم عوامل الأزمة الطارئة على الأمة الإسلامية وتعددت وجهات النظر ولكن الشىء الذى أجمعت عليه كل القوى الصادقة النصح : هو أن تخلف المسلمين نتج عن شعور بالتراخى والفتور ، والأخذ بالرخص دون العزائم والانفصال عن تطبيق المنهج الربانى وتلك سنة الأمم التى علمها القرآن الكريم المسلمين إذا هم غفلوا عن حراسة منهج الله وحراسة ثغورهم وتجاوزوها ضربتهم سنة الحضارات والأمم فإذا عادوا إلى الله كشف عنهم الأزمة وأقامهم على الحق .

٦ ـ غير أن تتابع أحداث التاريخ يؤكد أنه لم يمر عصر من عصور الإسلام دون أن يرتفع صوت بدعوة المسلمين إلى العودة لمنابعهم وتنقية فكرهم من عوامل التقليد والتبعية .

وفى العصر الحديث انطلقت اليقظة من قلب الجزيرة العربية التى إنطلق منها نور الإسلام أولا وسبقت اليقظة وصول الحملة الفرنسية بأكثر من أربعين عاماً ودعت بإسم دعوة التوحيد التى حمل لوائها الشيخ

محمد بن عبد الوهاب (والشوكانى وغيرهما) إلى العودة للينابيع وتحرير العقيدة وكانت منطلقاً لحلقات متتابعة من الاصلاح والتجديد توزعت الأمة الاسلامية كلها وقد خرجت هذه القوى من الأزهر والزيتونة والقرويين وخلاوى السودان تحت أسماء السلفية والتجديد والإصلاح واليقظة والصحوة .

غير أن النفوذ الغربى استطاع أن يفرض ثقافته إلى حين عن طريق التعليم والصحافة والسيطرة على السياسة والاقتصاد .

٧ — وقد انبهرت الأمة الإسلامية بزخارف وسحر الغرب ثمة ، ولكنها لم تلبث أن وعت نفسها وكشفت لها التجربة عن الفارق العميق ، في الوسائل والغايات .

أيضاً فقد كانت الثقافة الغربية غير منصفة حين هاجمت المنهج الاسلامى وأشد عقوقاً حين تجاهلت عطاء الحضارة الإسلامية .

وانتقلت الثقافة الإسلامية من مرحلة ما فرض عليها إلى مرحلة النقد والمعارضة واستعادة قدراتها بعد أن تكشف لها زيف دعاوى المدعين بأننا نستطيع أن نواجه الغرب بأسلحته وتبين لنا أن للإسلام والمسلمين أسلحتهم ومقاييسهم للأمور وقيمهم الخاصة التى لاينتصرون إلا بها ومن خلالها وعرفوا أن مجتمعهم لا يستقيم إلا على الأساس الربانى الذى قام عليه أصلا منذ أربعة عشر قرناً وأنه لا يستطيع أن

بزايل هذا المنهج إلى منهج بشرى مضطرب يعجز عن العطاء بعد قليل ويحتاج إلى الاضافة والحذف .

ولقد كشفت الأحداث فساد وجهة الداعين إلى اعتناق ثقافة الغرب وجاءت نكسة ١٩٦٧ لتضع النهاية لهذه المحاولة المقيتة حين تأكد المسلمين أنه لا يوجد أمامهم إلا طريق واحد : هو طريق القرآن .

٨ — وقد أكد هذا وآزره أن علماء الغرب ومفكروه وقادته كانوا قد وصلوا إلى مرحلة الشك فى قدرة المنهج الغربى على العطاء وتطلع كثيرون منهم إلى الاسلام كمنقذ لمجتمعهم وحضارتهم بعد أن عجزت الايدلوجيات الليبرالية والماركسية على السواء فى إعطاء الجنس البشرى بعامة — أشواق النفس وطمأنينة القلب والعدل والرحمة والاخاء كما عجزت مذاهب الثيوصوفية والبوذية وغيرها عن ذلك تماماً .

٨ — وقد أكد صدق الوجهة إلى الثقافة الاسلامية فشل تلك التجربة التى قام بها بعض المفكرين المسلمين فى محاولة لإقامة نوع من العلاقة التوفيقية بين التعاليم الاسلامية والحضارة الغربية ، بل إن بعض الذين دعوا إليها واشتركوا فيها أعلنوا أن الوجهة كانت خاطئة وأن النبت الغربى الذى وضعوه فى أرض الاسلام لم يثمر كما أشار إلى ذلك (هيكل ومنصور فهمى ولطفى جمعة) إلخ .

ولذلك فهم أنفسهم قد أعلنوا فشل التجربة بعد أن تبين لهم أن الغرب لم يكن يريد إلتقاءاً حراً وإنما كان يريد سيطرة واحتواء يؤديان إلى صهر الثقافة الاسلامية فى الغرب عن طريق القوة الاستعمارية السياسية المسيطرة وصدق الله العظيم إذ يقول :

(ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتهم)

كما تبين أن كل محاولات الالتقاء كانت ترمى إلى تخذيل قيم الاسلام كما أعلن هؤلاء الدعاة أن الغرب قد وصل فى التحدى إلى غاية مداه حين أطلق بعثات التبشير والتنصير تعمل على إخراج المسلمين من قيمهم الحقيقية وتحويلهم إلى لا دينيين يرفضون الاسلام ويكرهونه .

٩ — وقد بدأ ذلك واضحاً فى مؤامرة الغزو الفكرى حيث من فرض مفهوم للإسلام يختلف عن مفهومه الجامع المتكامل ، ويرمى إلى تصور لاهوتى قاصر عند حدود العلاقة بين الله تبارك وتعالى والانسان متجاهلا أو منكراً منهج الاسلام فى بناء المجتمعات سياسياً واقتصادياً واجتماعياً بوصفه عقيدة ونظام

١٠ — كانت محاولة النفوذ الغربى أساساً هو لاحتواء الثقافة الإسلامية التى هى المنطلق الأساسى لحركة الفكر الإسلامى وتقييدها (أولا) بعزلها عن النظام وقصرها على العقيدة ، ثم كانت محاولة فرض نظرية الإقليميات والقوميات والتركيز عليها والعمل لها من أجل هدم الوحدة الاسلامية الجامعة للمسلمين واستعان على ذلك بتحريف

تاريخ الاقطار وفصله عن تاريخ الإسلام العام والتركيز على الحفريات التى تعلى شأن ما قبل الإسلام من دعوات الفرعونية والفينيقية والآشورية والزنجية وغيرها ودعم مفاهيم القبلية والعرقية والطائفية وتأكيدها فى محاولة واسعة للحيلولة دون قيام وحدة إسلامية جامعة وخاصة بعد سقوط الخلافة العثمانية .

وكانت محاولته الثالثة خلق وحماية وتوجيه الفرق الضالة كالأحمدية والقاديانية والبهائية ودعمها وإتاحة الفرصة لها للعمل والظهور فى سبيل القضاء على مفهوم الثقافة الإسلامية الجامع بالدعوة إلى (١) التحلل الخلق (٢) إنكار ختم الرسالة (٣) وحدة الأديان (٤) إحياء مفاهيم الباطنية والحلول والاتحاد والمذاهب الفلسفية الضالة .

١١ — ومن هنا فإن وضع إستراتيجية موصلة للثقافة الإسلامية هو أمر بالغ الأهمية فى هذه المرحلة من حياة الأمة الإسلامية من حيث أنها - أى الثقافة - ملتزمة بتطوير حركة الفكر الإسلامى بحيث يتمكن المجتمع الإسلامى من تطبيق النظم الإسلامية فى مجالات الحياة المختلفة (إقتصادية واجتماعية وسياسية) وبحيث لا يقف الأمر عند رفض المفاهيم المعارضة لخصوصية الإسلام بل بتقديم البدائل التى تظهر إمكانية صلاحية القيم الإسلامية لكل عصر وبيئة وقدرتها على حل أزمات الأمم والشعوب ، وفى مقدمة ذلك بناء الانسان المسلم وتحصينه ضد التيارات المعادية فى مجال التعليم والصحافة والفن .

وإن أخطر ما يواجه الثقافة الإسلامية هى تلك المحاولة التى ترمى إلى تفريغها من محتواها العقائدى بهدف هدم قاعدتى الربانية والأخلاقية فيها وعليها أن تظل على يقين لا يتزعزع بأن لكل أمة مقوماتها وقيمها الأساسية التى لا تتخلى عنها ولها مفاهيمها للقيم الانسانية العامة بما يختلف عن الأمم الأخرى. وقد تتكامل الثقافات الفرنسية والانجليزية والأمريكية لأنها تلتقى فى مصادر أولية أما الثقافة الاسلامية فإنها تختلف نتيجة إختلاف المصادر والمنابع .

١٢ — أن الخطوة التى تخطوها الثقافة الاسلامية فى هذه المرحلة نحو إسلامية المعرفة والعلوم والمناهج هى خطوة على الطريق الصحيح .

وهى فى حاجة إلى مزيد من تكثيف الجهود وبذل الهمة وحشد القوى حتى يكتمل عملها وتصدق وجهتها وتتجاوز مرحلة الخطر التى يفرضها الغزو الثقافى والتغريب وخاصة بعد أن تكشف محاذير كثيرة عن أعمال الاستشراق دفعت إلى ما يجرى الآن من تحرير دوائر المعارف الإسلامية من سموم الالحاد والوثنية والمادية وتأصيلها .

ولا بد كذلك من إعادة النظر فى مناهج الثقافة والتربية والتعليم وأن يكون منطلقها هو العقيدة الإسلامية والالتزام بالدفاع عن قيم الإسلام ، وإذا كان العلم لا وطن له وإن المعرفة عالمية فإن الثقافة مرتبطة بالكيان الخاص بالأمة أساساً ، وبذلك تكون الثقافة

الاسلامية فى جوهرها هى ما يؤدى إلى تكوين رؤية خاصة للكون والمجتمع والانسان ويكون دور العلوم والمعارف تغذية هـــذا الوجدان بما يدفعه إلى التقدم دون أن يقضى على تميزه الخاص القائم على العقيدة والأخلاق وتكامل الجوانب الروحية والمعنوية والعقلية والوجدانية .

هذا وبالله التوفيق ؟ .



مطبعة دار البيان بمصر
ت/ ٩٢٨٦١١٩

رقم الإيداع ١٩٨٨/٤٨٠٣

الترقيم الدولى ٤-٥٢-١٦٠٠-٩٧٧